الفِتَن

عَلَامَاتُهَا، أَسْبَابُهَا، طُرُقُ الوِقَايَةِ مِنْهَا

ح مدار الوطن للنشر ، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهـد الوطنية أثناء النشر

الخضير ، عبد الكريم، عبد الكريم عبد الله

الفتن : علاماتها ، أسبابها ، طرق الوقاية منها.

/عبد الكريم ، عبد الكريم عبد الله الخضير ـ الرياض، ١٤٣٨هـ

٥٨ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٧ ـ ٦٧ ـ ٨١٧١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ـ الإسلام مبادئ عامة ٢ - الفتن في الإسلام أ ـ العنوان

ديوي : ٢١١ ١٤٣٨/١٨٢٦

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١٨٢٦

ردمك: ٧-٦٧-٨١٧١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٣٨هـ

معالم السنن

المملكة العربية السعودية - الرياض - حي الجزيرة - شارع طلحة بن عبيد الله - مبنى معالم السنن -

هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٤٥٠٤٥٨ - فاكس: تحويلة ١٠٥ -

جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٧٤٩٥٥٥ - البريد الألكتروني:

books@malemassunan.com - www.shkhudheir.com

مدار الوطن للنشر

المملكة العربية السعودية – الرياض

المقر الرئيسي - الروضة - ت: ١١٢٣١٣٠١٨

ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ (٣ خطوط) – ف: ١١٢٣٢٢٠٩٦

فرع مخرج ١٥ مقابل جامع الاحجي – ت: ٠١١٤٤٥٤١٢٤

٠٥٠٣٢٨٣١٨

الموقع الإلكتروني: www.madaralwatan.com.sa

البريد الإلكتروني: pop@madaralwatan.com.sa
madaralwatan@hotmail.com

سلسلة إصدارات مؤسسة معالم السنن (٩)

الفتن

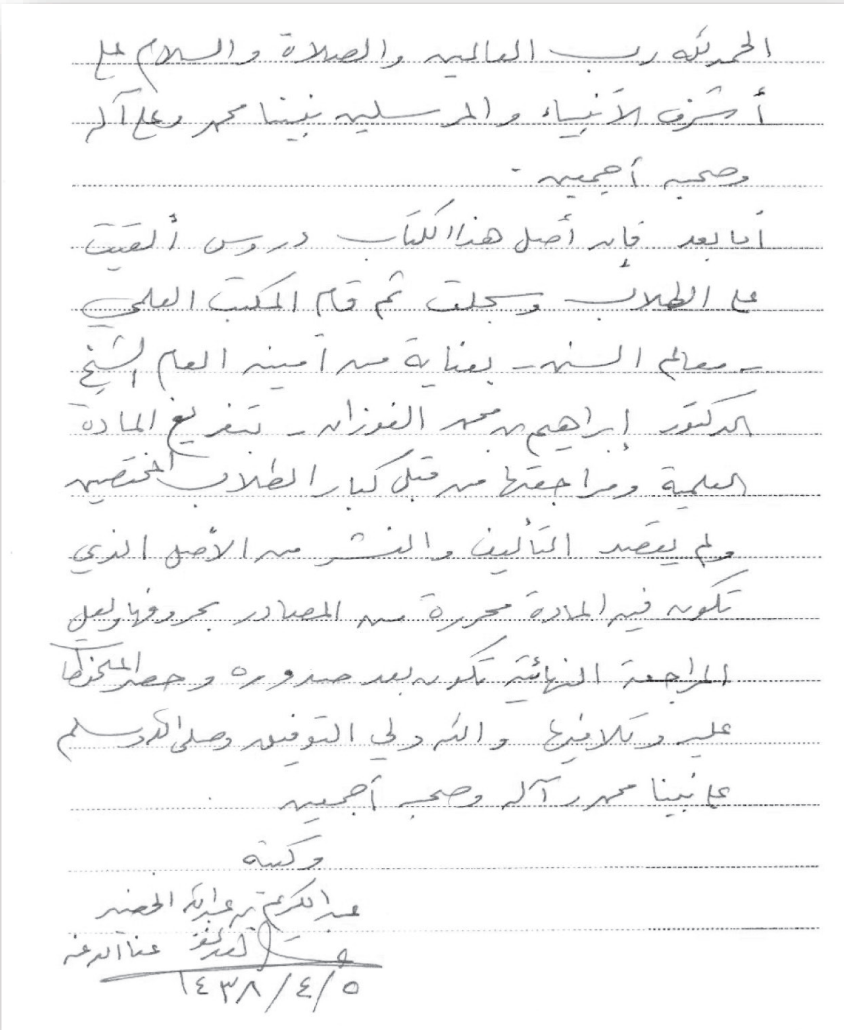
علاماتها، أسبابها، طرق الوقاية منها

لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد الكريم بن عبد الله الخضير
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

معالم السنن
دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ عبد الكريم الخضير



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فإن أصل هذا الكتاب دروس ألقيت على الطلاب وسجلت ثم قام المكتب العلمي بمعالم السنن بعناية من أمينه العام الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الفوزان بتفريغ المادة العلمية ومراجعتها من قبل كبار الطلاب المختصين ولم يقصد التأليف والنشر من الأصل الذي تكون فيه المادة محررة من المصادر بحروفها ولعل المراجعة النهائية تكون بعد صدوره وحصر الملحوظات عليه وتلافيه والله ولي التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبدالكريم بن عبدالله الخضير

عفا الله عنه

١٤٣٨/٤/٥

تقديم فضيلة الشيخ عبد الكريم الخضير

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أصل هذا الكتاب دروس ألقيت على الطلاب وسجِّلت، ثم قام المكتب العلمي معالم السُّنن -بعناية من أمينه العام الشيخ الدكتور إبراهيم ابن محمد الفوزان- بتفريغ المادة العلمية ومراجعتها من قِبَل كبار الطلاب المختصِّين، ولم يُقصد التأليف والنشر من الأصل الذي تكون فيه المادة محررةً من المصادر بحروفها، ولعل المراجعة النهائية تكون بعد صدوره وحصر الملحوظات عليه وتلافيها، والله وليُّ التوفيق، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عفا الله عنه

١٤٣٨/٤/٥

كلمة مؤسسة معالم السنن

الحمد لله الذي رفع بالعلم أهله واجتباهم، وأورثهم علم الكتاب وبه اصطفاهم، وصلَّى الله وسلم على نبِّينا محمد، وعلى آله وأصحابه من مبدئهم إلى منتهاهم، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين واقتفاهم.

أما بعد:

فإن ممَّا لا يخفى على أحدٍ ما للعلماء من منزلة عليَّة، ومكانة سنيَّة، فهم ورثة الأنبياء، ونجوم السَّماء، وزينة الدُّنيا، وبِهم قوام الدِّين، روى أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لَتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ**».

ومن العلماء الذين بذلوا وقتهم في تعليم العلم ونشْرِه فضيلةُ الشيخ العلامة عبد الكريم بن عبد الله الخضير -حفظه الله ومتَّع به-، والذي عرفه أهل العلم وطلبته بالتفنن والاتساع، وجودة التحقيق، وسعة الاطلاع.

وقد وفَّق اللهُ الشيخَ منذ زمن طويل للتصدي لشرح كتب أهل العلم في مختلف الفنون والتعليق عليها، فشرحها بشروح جامعة نافعة، أثراها سعة اطلاع الشيخ ومعرفته بمكنونات الكتب -لا سيما المطولات منها-، واختلاف طبعاتها؛ مما جعل لهذه الشروح رواجًا بين طلاب العلم، على اختلاف مستوياتهم.

كما هيَّأ الله مؤسسةَ معالم السنن لخدمة علم الشيخ ونشره منذ تأسيسها عام ١٤٣٣؛ من خلال نوافذ متعددة: إلكترونية وفضائية، وها هي -بفضل الله- تكمل باكورة النوافذ، بالطباعة الورقية؛ لِتُتَوِّجَ بها مشروعاتِها، وتنظمَ بها عِقْدَها.

ومما يحسن التَّنبيه عليه أن هذا الكتاب ليس مؤلفًا للشيخ، وإنَّما شرحٌ صوتيٌّ، تمَّ تفريغه، وترتيبه، وخدمته خدمة علميَّة بعد إذن الشيخ بذلك. ونظرًا للصعوبة البالغة في تحويل النتاج الصوتيِّ إلى قالب الكتب المطبوعة، ولاستشعار المؤسسة المسؤوليةَ المنوطةَ بها، وطلبًا للإتقان دون تكلُّفٍ، رسمت المؤسَّسة لنفسها خطة مجوَّدة -أقرها الشيخ حفظه الله-؛ لتخرج كتبُهُ بجودةٍ عاليةٍ، تُرضي -بإذن الله- طلَّاب العلم ومحبيه. وقد كانت مراحل العمل على كتب الشَّيخ وفق الآتي:

الأولى: صفُّ المفرَّغ من الشرح الصوتي ومطابقته.

الثانية: العمل على ترتيب الشَّرح بما يتناسب مع الكتاب، مع عدم التصرف في كلام الشَّيخ. وعند وجود ما يشكل من المسائل يعرض على الشيخ -حفظه الله-.

الثالثة: تخريج الأحاديث والآثار، وعزو الأقوال والمذاهب إلى أصحابها، والخدمة العلمية للكتاب.

الرابعة: المراجعة اللغوية للكتاب والتأكُّد من سلامة النص من الأخطاء النحوية والإملائية التي قد تحدث أثناء العمل.

الخامسة: مراجعة الكتاب من قبل متخصص في الفن المشروح؛ للتَّأكُّد من سلامة المادة العلميَّة بعد العمل عليها من قبل الباحثين.

السادسة: إجازة الكتاب للطِّباعة من قبل مستشاري المؤسَّسة العلميين.

وفي هذا المقام البهيج لطباعة هذا الكتاب **(الفتن: علاماتها، أسبابها، طرق الوقاية منها)**، نشكر الشَّيخ -حفظه الله- على ما قدَّمه ولا يزال يقدِّمه لطلاب العلم، أعظم الله له المثوبة والأجر، وبارك في علمه وعمله وعمره، ونفع بعلمه الإسلام والمسلمين. ونثَنِّيه بالشكر لفريق العمل في مؤسسة معالم السنن على الجهد الكبير الذي بذلوه لإخراج الكتاب، ونثلِّثه بشكر المستشارين العلميين في المؤسَّسة، والمراجعين المختصِّين، وكلِّ منْ ساهم وشارك في إخراج الكتاب. فجزاهم الله خيرًا وبارك في أعمالهم.

والشكر موصول للمؤسَّسة الرائدة: أوقاف الشيخ محمد بن عبد العزيز الراجحي، لإسهامها في دعم إخراج هذا الكتاب.

ونسأل الله تعالى التَّوفيق والسداد، وندعو كافَّة أهل العلم وطلَّابه حيثما كانوا إلى مدِّ يد النَّصيحة، والمسارعة بإبداء الملاحظات والاقتراحات على ما قد يقع من أخطاء فيما طُبِع ويُطبَع من شروح الشَّيخ، فالمرء كثير بإخوانه، والله المسؤول أن يباركَ في الجهود ويتقبَّلها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

معنى الفتنة

الفتنة في اللغة:

يقول الأزهري: «جِماع معنى الفتنة الابتلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، وأصلها مأخوذٌ من الفَتْنِ، وهو عَرْض الذهبِ والفضةِ على النار؛ ليعرفَ الجيدُ من الرديء»[1].

الفتنة في الشرع:

جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]، ولها معانٍ خاصة تختلف باختلاف السياق والقرائن[3]، وإن كان الأصل اللغوي للمادة موجودًا في جميع معانيها، فمن هذه المعاني:

المعنى الأول: الشرك

وهو الفتنة التي تضرب سنامَ الدين، وتكسر قناتَه، وتنقضُ عرى التوحيد

(١) تهذيب اللغة (١٤/ ٢١١)، وينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٢).

(٢) ينظر: جامع الرسائل(٢/ ٢٧٤).

(٣) ولهذا فسر البخاري في بعض نسخه قوله -تعالى- حكاية عن الجَدّ بن قيس: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ قال: «لا توبّخني». الصحيح (٦/ ٦٣).

عُروةً عروةً، وهي أخطرها على الإسلام وأهله، يقول الله -جل وعلا-: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ويقول تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] والفتنة هنا: الشرك، وهذا قول عامة السلف في هاتين الآيتين، ويدل على هذا سبب نزول الآية الأخيرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منهاج السنة: «فإنَّ الكفارَ عيّروا سريةً من سرايا المسلمين بأنهم قتلوا ابن الحضرمي في الشهر الحرام، فقال تعالى: هذا كبير، وما عليه المشركون من الكفر بالله والصد عن سبيله وعن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، فإن هذا صد عما لا تحصل النجاة والسعادة إلا به، وفيه من انتهاك المسجد الحرام ما هو أعظم من انتهاك الشهر الحرام»(١).

فهو أعظم وأكبر عند الله؛ لأن قتلَ النفس قضاءٌ على حياة الإنسان الدنيوية، وهي محدودة فانية، ولا مفرَّ من الموت ولو عُمِّرَ ما عُمِّرَ من السنين، وأما الفتنة وصد الإنسان عن دينه، ومحاولة صرفه إلى الكفر والشرك والنفاق، فهذا قضاء على حياته الأبدية، ولا نسبة بينهما ولا مقارنة، وفي هذه المحاولة والصد والتنكيل اختبارٌ وابتلاء للمفتون: أيَصبر على دينه أم لا؟

فالمسلم يصبر على إزهاق روحه وإراقة دمه، خشية هذه الفتنة التي هي الردة عن الإسلام، نسأل الله السلامة والعافية.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفتنة الشرك، لعله إذا رد

(١) (٢/ ٣٠-٣١)، وينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٤٦).

بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيزيغ قلبه فيهلك»[١].

المعنى الثاني: الاختبار

وذلك لإظهار الجودة والباطن الصالح، أو لإظهار فساد الباطن، أو لإظهار الأمرين معًا.

فمن الأول: وهو أن تكون الفتنة بمعنى الاختبار لإظهار صلاح المفتون وعلو مقامه، قوله الله -جل وعلا- في حق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠]، وفي قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص:٣٤]، وفي قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص:٢٤]، فالمراد بكل ذلك اختبرناهم؛ لتعلو مقاماتهم ودرجاتهم بما يحدثونه من توبةٍ وقربةٍ إلى ربهم.

ومن الثاني: وهو أن تكون الفتنة بمعنى الاختبار لإظهار فساد المفتون وضلاله، قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[التوبة: ٤٩].

ومن الثالث: وهو أن تكون الفتنة بمعنى الاختبار لإظهار الأمرين معًا، قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]، أي: امتحانك وابتلاؤك، تُضِلُّ به من وقع فيه واستشرفَ له، وتهدِي من جانَبه وتباعد عنه[٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

(١) ينظر: الصارم المسلول لابن تيمية (١/٥٩).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٠٥).

والإنسانُ قد يكون فتنةً لغيره وداعية إلى الضلال وهو لا يشعر، فيحمِل من أوزارهم وتبعاتهم ما الله به عليم، فالرجل في بيته إذا تساهل في بعض المعاصي، وصار لا يهتم بدينه ويتساهل في صلاته، اقتدى به من في البيت من النساء والذراري، وتخرَّجوا على تساهله، وبدلًا من أن يكون قدوةَ خيرٍ وأسوةً حسنةً لهم تجده يكون قدوةَ سوءٍ، ولذا ينبغي أن يكون هذا الدعاء على لسان المسلم دائمًا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:٨٥] صاروا ظالمين؛ لأنهم انحرفوا بسببك والاقتداء بك.

المعنى الثالث: المعصية والإثم

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩]، ففي غزوة تبوك استأذن بعض المنافقين رسولَ الله ﷺ في القعود؛ لئلا يفتتِن ببنات بني الأصفر، يقول: «إذا رأيت بنات بني الأصفر فإني أخشى ألا أصبر وأواقع المعصية»(١)، يتذرَّعُ بذلك ويتعلَّل به من أجل ترك الجهاد، نعم رؤيةُ النساء مؤثرةٌ في الرجال لا سيما الذي في قلبه مرض: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[الأحزاب: ٣٢]، ولكن ليستْ عذرًا لترك

(١) رُوي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق، أخرجه أبو نعيم في المعرفة (٥/٢٣٨)، والطبراني في الكبير (٢/٣٧٥)، وفي الأوسط (٥/٣٧٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/٢١٣) لابن المنذر وابن مردويه، وعن جابر أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٦/١٨٠٩)، وقد رويت القصة عن مجاهد وغيره مرسلة. ينظر تفسير الطبري (١٤/٢٨٦).

الواجبات، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنّه لا بدّ من أذى لكلّ من كان في الدنيا، فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله، بل اختار المعصية، كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فرَّ منه بكثير»(١)، وقال: «فكيف يطلب التخلُّص من فتنة صغيرةٍ لم تُصبْه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته»(٢).

وبعض الناس لا يحج ولا يعتمر متعلِّلًا بانتشار التبرج، وأنه يخشى أن يفتن، فهذا إذا كان حجه أو عمرته نفلًا فالترك سهل، وله أن يوازن بين المصالح والمفاسد، مع أنَّ على الإنسان أن يؤدِّيَ ما أمر به، ويحتاط لنفسه في اجتناب المحرمات، لكن إذا كان النسك فرضًا دخل في هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

المعنى الرابع: جميع ما يشغل الإنسان عن طاعة الله ورسوله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥]، فالانشغال بالشيء والالتهاء به عن المطلوب فتنة، كما قال النبي ﷺ في أَنْبِجَانِيَّةِ أبي جهم: **«رُدِّي هذه الخميصة إلى أبي جهم، فإني نظرت إلى عَلَمها في الصَّلاة، فكاد يفتِنَنِي»**(٣)، أي: يشغلني عن المطلوب من حضور القلب والخشوع في الصلاة، ولا

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٢).

(٢) الاستقامة (٢/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٦٧)، وأحمد (٢٥٤٤٥)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦)، بغير جملة الفتنة المثبتة، وعلقه البخاري بعد (٣٧٣) عن هشام ابن عروة

يتصور أن رسول الله ﷺ انشغل بها فأخذت عليه حيزًا من وقته في صلاته، بل هو مجرد التفات لها ونظر، فكيف بما يسبب شغلَ الناس في صلاتهم بما فتن به الناس في هذه الأزمان من زخرفة المساجد وكتابة الآيات في قبلتها ومحاريبها، ففي بعض المساجد يدخل المصلي في صلاته ويخرج ما عَقَل منها شيئًا؛ بسبب هذه الزَّخارِف التي تفتنه وتشغله عن المطلوب من الخشوع والتفكُّر في عظمة من وقف بين يديه، وإذا كان عُمَّار المساجد يبتغون بذلك الثواب والأجر من الله جل وعلا فليتقوا الله في هذه الزخارف التي تشغل المصلين عن أداء هذا الركن العظيم على الوجه المطلوب، وقد جاء في الخبر: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»(١).

وقال الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتنَ الناسَ»(٢).

وللفتنة معانٍ أخرى أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة معانٍ(٣).

عن أبيه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بلفظ: «كنت أنظر إلى عَلَمِها وأنَا في الصلاة فأخاف أن تفتنني». والأَنْبِجَانِيَّة: -بفتح الهمزة وبكسر الباء وشدِّ الياء وتخفيفِها- كساءٌ غليظٌ يُتخذ من الصُّوف، لا أعلامَ له. ينظر: فتح الباري (١/٤٨٣)، المطالع (١/٢٩٩)، النهاية (١/٧٣).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٩)، والنسائي (٦٨٩)، وابن ماجه (٧٣٩)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن خزيمة. ينظر: فتح الباري لابن رجب (٢/٤٧١ وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (١/١٧١)، قال ابن بطال تعليقًا على الأثر (٢/٩٧): «ويمكن أن يفهم هذا عمرُ من رد الرسول الخميصة إلى أبي جهم حين نظر إلى أعلامها في الصلاة، وقال: «أخاف أن تفتنني»».

(٣) ينظر: غريب الحديث للحربي (٣/٩٣١)، مقدمة الفتح (ص:١٦٥)، مشارق الأنوار للقاضي عياض (٢/١٤٦).

علامات الفتن، وبيان خطرها على الدين

لا يخفى على أحد ما يدور في أقطار الأرض من فتنٍ، وقتلٍ وانتهاكٍ للأعراض، ونهبٍ للأموال، وإخافةٍ للسبل وغير ذلك، ومن أراد أن ينظر في مقدار الأهوال التي تنشأ عن هذه الفتن فليقرأ ما كتبه المؤرخون: ابنُ الأثير وابنُ كثيرٍ وغيرهما في قصة سقوط بغداد على أيدي التتار، وكم قتل فيها في غُضون ثلاثة أيام من أنفس مسلمةٍ، قيل: بلغت مليونًا وثمانمائة ألف شخصٍ، حتى اختفى الناس في القبور(١)، وليقرأ ما كتب في النجوم الزاهرة عن فتنة تيمورلنك(٢) لما قدم إلى دمشق(٣)، وهي أمور مهُولة لا يُطيق العقل البشري تحمُّل سَماعها فضلًا عن أن يكون طرفًا فيها، فكانوا يأتون بقطعٍ من الخِرَق ويضعون فيها الغبار الناعم ويجعلونها مثل الكمامات على الناس ليستنشقوا هذا الغبار الناعم(٤)، ولكل قوم

---

(١) ينظر: الكامل في التاريخ (٥/ ٣٠٤)، وقال في مطلعها: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة؛ استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلًا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًا... ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج». اهـ، والبداية والنهاية (١٣/ ٨٧).

(٢) هو آخر ملوك التتر، و«تيمور» معناه حديد بلغة الترك، و«لنك» معناه بلغتهم الأعرج، ولد سنة ٧٢٨هـ، وتوفي سنة ٨٠٧هـ. ينظر: النجوم الزاهرة (١٢/ ٢٥٣) لابن تغري بردي.

(٣) (١٢/ ٢٢٢ وما بعدها).

(٤) قال في (١٢/ ٢٤٤): «فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب، والعصر، والإحراق بالنار، والتعليق منكوسًا، وغم الأنف بخرقة فيها

وارث فقد وجد اليوم مثل هذا التعذيب وأشد منه، والتاريخ يعيد نفسه، نسأل الله -جل وعلا- أن يدفع عنّا الفتن والمحن الظاهرة والباطنة، وأن يقينا شر الأسباب التي يباشرها بعض من ينتسب إلى الإسلام التي يُخشى من عواقبها.

والمسلمون اليوم يمثلون ثلث سكان الأرض، وعلى أقل تقدير هم مليار ونصف أو أكثر، ولما تركوا التمسُّكَ بدينهم صاروا كما قال النبي ﷺ: **«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قَصْعتها»، فقال قائل: «ومن قِلَّة نحن يومئذ؟»، قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثُاء كغُثُاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: «يا رسول الله، وما الوهن؟»، قال: «حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت»**(1)، قال الطيبي: «والغثاء: ما يحمله السيل من القماش، شبّههم بذلك لقلة غنائهم ودناءة قدرهم وخفة أحلامهم»(2)، فضربت عليهم الذلة، حتى سلط عليهم من قبلِ اليهودِ، واليهود نسبتهم مع المسلمين واحد من ألف وحبلهم مع الله منقطع، والذي بقي بأيديهم حبل من الناس وهو اتصالهم بالقوى الكافرة الملحدة: أمريكا وغيرها، وسلطوا على خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها ابتعدت عن دينها وقارفت ما قال عنه نبيها ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم**

تراب ناعم كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعًا، فكان المعاقَب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت ويقول: ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه...».

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٨٧١٣)، عن ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال الهيثمي في المجمع (١٢٢٤٤): «إسناد أحمد جيد».

(٢) شرح المشكاة (١١/٣٣٩٤).

الجهاد في سبيل الله، سلّط الله عليكم ذلًا لا يرفعه إلا أن تراجعوا دينكم»[١].

ومن آثار الفتن وسماتها أن تتعطل الجُمَع والجماعات والأحكام والحدود، وتضيع الحقوق، وتتقطَّع السُّبل، ويحل الخوف محل الأمن، والفقر محل الغنى، وتنتهك الأعراض، وتنهب الأموال وتزهق النفوس، ومن آثارها على الأمة أن يدخل في صفوفها ويتغلغل فيها من لا يرقُب فيهم إلًّا ولا ذمةً، يدَّعِي الإسلام وهو في الحقيقة يَكيدُ للإسلام وأهله.

والفتن مذمومةٌ في النصوص وعند السَّلف، وقد أُمِرْنا بالتعوُّذِ في كل صلاة من أربع، ومنها: فتنة المحيا والممات[٢]، وفتنة المحيا: ما يتعرض له الإنسان في حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات وأشدها وأعظمها -والعياذ بالله تعالى- أمر الخاتمة عند الموت[٣]، ولا يستعاذ إلا من مكروهٍ مخوفٍ، ولأهمية هذا الأمر وخطورته يجب علينا أن نتفقه فيه، كما نتفقه في أبواب الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع، والفقه في هذا الباب بمعرفة خطر الفتن على الدين،

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وأحمد (٥٥٦٢)، وصححه ابن تيمية في غير كتاب، قال في الفتاوى (٢٩/٣٠): «وقد روى أحمد وأبو داود بإسنادين جيدين عن ابن عمر...» وذكره. وقال في الفتاوى الكبرى (٦/٤٥): «وهذان إسنادان حسنان، أحدهما يشد الآخر ويقويه».

(٢) أخرجه بلفظ الأمر مسلم (٥٨٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللّهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»، وأخرجه مسلم أيضًا (٥٩٠)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وجاء التعوذ من فتنة المحيا والممات من دعائه ﷺ في أحاديثَ أخرى في البخاري وغيره.

(٣) ينظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد (١/٢٠٧).

ومعرفة أسبابها وبواعثها لتجتنب، والسبل التي ينبغي على المسلم اتباعها في أوقات الفتن.

ومِن الناس مَن إذا رأى تلاطم أمواج الفتن في هذا الزمان ضاقت به الأرض بما رحبت، وظنَّ أن الخير قد انقطع، والأمر بخلاف ذلك، ودينَنا -ولله الحمد- دين الخلود، مضمون له البقاء إلى قيام الساعة[(١)]، وأبواب الخير مفتوحة ومشرعة، وسنة المدافعة باقية إلى قيام الساعة، وما يغلق باب في وجه المسلم إلا ويفتح الله له أبوابًا وآفاقًا أخرى من أعمال الخير التي توصله إلى مرضاة الله -سبحانه وتعالى-.

ففي حديث أبي ثعلبة الخشني قال: قال ﷺ: **«فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله» قالوا: «يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟» قال: «أجر خمسين منكم»**[(٢)].

فمثل هذه الأخبار مع كونها تخبر عن واقعٍ مريرٍ، وأزمانٍ عصيبةٍ إلا أنها تشرح صدر المؤمن الصادق، وتقوي عزيمته للعمل والمدافعة رجاء **«أجر خمسين»** من الصحابة في آخر الزمان عند فساد الناس، وهذا ليس بالسهل، ولا بالهيِّن.

وقد تقرر أنّ الفتنة هي: الاختبار والابتلاء، والبلاء قسمان:

(١) كما في الحديث المتواتر المرفوع: «لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٥٦)، عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»، أخرجه الترمذي (٢٣٥١)، وابن ماجه (٦)، عن معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعًا به، وهو حديث متواتر رواه أكثر من خمسة عشر صحابيًّا بألفاظ متقاربة مخرجة في الصحيحين والسنن والمسانيد وغيرها، ينظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني (ص:١٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وحسنه، وابن ماجه (٤٠٤١)، وصححه ابن حبان (٣٨٥)، والحاكم ووافقه الذهبي (٧٩١٢).

الأول: بلاء وقع على الإنسان بغير اختياره، فهذا يعين الله الصادقين عليه، وينجيهم منه.

الثاني: بلاء وقع على الإنسان بتعرضه واستشرافه له، وهذا الذي يخاف على صاحبه منه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأمر العبد بالاحتراز من أسباب الفتنة، فإن الإنسان إذا تعرَّض لذلك فقد يفتتن ولا يسْلَم، فإذا قُدِّرَ أنه ابتُلي بذلك بغير اختياره، أو دخل فيه باختياره وابتلي، فعليه أن يتقي الله ويصبر، ويخلص ويجاهد، وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من أفضل الأعمال، لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه، وإذا تعرض العبد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: **«لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أُعطيتَها عن مسألة وُكِلت إليها، وإن أُعطيتَها عن غير مسألة أُعِنت عليها»**[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد جاءت شواهد السنة بأن من ابتُلي بغير تعرضٍ منه أُعين، ومن تعرّض للبلاء خِيف عليه»[(٢)].

وهكذا الفتن، منها ما يُبتلى به العبد امتحانًا من غير تعرض لها، ويُعان عليها، ويخرج منها نقيًا ناجحًا، ومنها ما يتعرض العبد ويستشرف له فيهلك.

والحياة مطبوعة على الكَدَر، والعبد -ما دام فيها- مقرون به الكَبَدُ، ولا يمكن أن تسير حياة الإنسان على وتيرة واحدة، ولا محيص من الاختبار والامتحان

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٧٧)، وحديث عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٢١).

ليعرف المحق من المبطل، والصادق من الكاذب قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذكر –سبحانه– في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده، ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم، وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه، وافتتحت بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته –سبحانه– وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة، وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو –سبحانه– كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه، ثم أنكر –سبحانه– على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله –خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم– ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخَلَّص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فرَّ عنه، فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنا، امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه –تعالى– ويفوته، بل هو في قبضته، وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى

به من قال: آمنت»[1].

والداعي إلى الله على بصيرة لا بد أن يصبر على الأذى الذي يجده حتمًا في طريق دعوته وهو سبيل الرسل وطريقهم، ولا بد أن يحصل له من الأذى ما حصل لغيره من الأنبياء والصالحين، والواجب عليه أن يصبر ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: أمروا بالمعروف، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]؛ لأنه لا بد أن يحصل لهم أذى وعناء، والجنة حُفت بالمكاره، والنار حُفت بالشهوات[2].

والاستعاذة بالله من الفتن، لا تعني الاستعاذة بالله من الأهل والولد والمال والتجرد منها، وإنما المراد الاستعاذة مما يضر بالدين، ويصرف عن المأمور من طاعة الله، وكلّ نعمةٍ من نعم الدنيا إذا صُرفت عن المطلوب، فهي فتنة من هذه الحيثية لا من حيث أصلها، بل حتى العلم يكون لبعض الناس فتنةً إذا أوقع في العجب، وحب المغالبة، والظهور، وكل ما أُحبَّ لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين كله لله.

وأما وجود أصل الولد والمال فقد طلب ذلك الشارع لا حال كونها فتنة، بل طلبها ما دامت معينة على الحق، بل ذلك مستحب إذا كان المراد منه الاستعانة على طاعة الله وعبوديته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]،

(١) شفاء العليل (ص:٢٤٥).

(٢) إشارة إلى ما أخرجه مسلم (٢٨٢٢)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»، وهو عند البخاري (٦١٢٢)، ومسلم (٢٨٢٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره».

وقال رسول الله ﷺ: **«تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثرٌ بكم الأمم»**[1]، فالإنسان مأمور بكسب المال من وجهه، ووضعه في محله، ولكي يكون وسيلةً للغاية الكبرى من الخلق لا غايةً وهدفًا في هذه الحياة، بحيث يكون محياه ومماته لهذا المال، يضحي بكل شيء من أجله، كما رأينا وسمعنا في هذه السنين المتأخرة بعد ما فتحت الدنيا على الناس.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده»[2].

فالمقصود أن المال إنما يطلب لتحقيق الهدف الذي من أجله خلق الله العباد، وهو العبودية لله جل وعلا؛ إذ لا تقوم الحياة إلا بالمال.

وكذلك طلب الولد؛ لبقاء النوع والجنس الإنساني؛ ليُعبد الرب جل وعلا إلى قيام الساعة، ولو أن كل واحد من المسلمين عزف عن الزواج خشية أن يبتلى بالأولاد لخالف سنة النبي ﷺ وسنن المرسلين.

وفي حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: **«بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: «أيُّكم يحفظ قولَ النبي ﷺ في الفتنة؟» قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «فتنةُ الرجلِ في أهله وماله**

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والحاكم (٢٦٨٥) -وصححه ووافقه الذهبي-، ومن طريقه البيهقي في الكبرى (٧/١٣١)، عن معقل بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وله شاهد عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند أحمد (١٢٦١٣)، وابن حبان (٤٠٢٨)، وآخر عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند البيهقي في الكبرى (٧/٨٧)، وصححه العراقي في المغني (١/٣٨٦).

(٢) العبودية (ص: ٩٣).

ووالده وجاره، تكفِّرُها الصلاةُ والصدقةُ، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر»، قال: «ليس عن هذا أسألُك، ولكن التي تموجُ كموجِ البحر»، قال: «ليس عليك منها بأسٌ يا أميرَ المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا»[1].

ففتنة الرجل في أهله وماله التي تكفرها الصلاة وسائر الأعمال هي فرط محبته لهم، وشحّه عليهم، وشغله بهم عن كثير من الخير، وتفريطه فيما يلزمه من القيام بحقوقهم، وتأديبهم، وتعليمهم[2].

وفي هذا الحديث أنّ من الفتن كبارًا وصغارًا، فالكبار التي تموج كموج البحر المتلاطم: أي تضطرب اضطراب البحر عند هيجانه، وكنَّى بذلك عن شدة المخاصمة وكثرة المنازعة، وما ينشأ عن ذلك من المشاتمة والمقاتلة[3].

والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، وحارت فيها العقول، فصار الأكابر عاجزين عن إطفاء الفتنة وكفّ أهلها عن مباشرتها، وهذا شأن الفتن كما قال -جل وعلا-: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوُّث بها إلا من عصمه الله، وفي الصحيحين عن زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: **«لا إلهَ إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه»** وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كثُرَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢)، ومسلم (١٤٤).
(٢) الديباج للسيوطي (١/ ١٦٠)، وينظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٧١).
(٣) ينظر: فتح الباري (٦/ ٦٠٦).

الخبثُ»[1]؛ لأن بعض الناس يظن أن وجود الصالحين لا المصلحين أمانٌ من العذاب، فوجود الخير في بلدٍ ما، كأن يكون فيه علماء ودعاة وعباد، وجمعيات خيرية، وإقبالٌ على العلم الشرعي، وحلق التحفيظ، وجود ذلك كله ليس ضمانًا لسلامة القوم من الهلاك، فلا تنظر إلى الخير بمقداره مهما بلغ، لكن انظر إلى الطرف الثاني وهو كثرة الخبث.

والفتن إذا أقبلت شغلت الناس عن الطاعات إلا من رحم الله، ومنعتهم عن كثير مما كانوا يعتادونه من الخير، وفي الحديث: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينَه بعرض من الدنيا**»[2].

وشبهت بـ«**الليل المظلم**»؛ لفرط سوادها وظلمتها، وعدم تبيُّن الصلاح والفساد فيها؛ والليل وإن كان كله مظلمًا، فإن بعضه -ولا سيما الليالي المقمرة- فيه نور، وحاصل معنى الحديث: تعجلوا بالأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن المظلمة، التي لا تكاد تُبصَر فيها جادَّةٌ، ولا يُعرف فيها مسلك، فإنكم لا تطيقون الأعمال على وجه الكمال فيها.

والفتن أول ما تبدأ شرارة ثم يجر بعضها إلى بعض حتى تكون نارًا لا تدع أخضر ولا يابسًا إلا التهمته.

«**يصبح الرجل مؤمنًا**» أي: سواء موصوفًا بأصل الإيمان أو كماله، فالمقصود أن أصل الإيمان موجود، فهذا يصح أن يطلق عليه مؤمن.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (١١٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«ويمسي كافرًا» أي: حقيقة يعني يخرج من الدين بالكلية، أو يكفر كفرًا أصغر، أو كفر نعمة، أو يمسي مشابهًا للكفار، أو فاعلًا أفعالهم بإهدار دماء المسلمين، وأموالهم، وأعراضهم؛ لأن الأصل أن هذا ليس من أخلاق المؤمنين.

وقال بعض أهل العلم: إن المعنى: يصبح محرِّمًا ما حرمه الله -جل وعلا-، ويمسي مستحلًّا إياه، وبالعكس؛ لأن استحلال الحرام المتفق عليه المعلوم من الدين بالضرورة، أو تحريم الحلال المعلوم من الدين بالضرورة كفر وردة[1]، وهذا كمحاولة بعض الناس أن يجعل مَخْرَجًا لبعض فئات الكفار، ونصيبًا من الجنة، فيروِّج اليوم بقوة كون اليهود والنصارى مؤمنين، يشاركون المسلمين في الإيمان بالله، ووجد من يترحم على موتاهم، وعند أهل العلم هم كفار بالإجماع، ومن شك في كفرهم كفر إجماعًا[2]، فهذا -والعياذ بالله- مما يدخل في قوله ﷺ: **«يمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا»**.

فالحاصل من ذلك أنه في الفتن يكثر التذبذب والاضطراب في أمر الدين، والتتبع لأمر الدنيا، كما بيَّنه ﷺ بقوله: **«يبيع»** أي: الرجل **«دينه»** يترك دينه **«بعرض من الدنيا»** أي: بأخذ متاعٍ دنيء وثمنٍ رديء من الدنيا[3]، وفي بعض

(١) فلا يدخل هنا الأمور المختلف فيها والراجح مثلًا تحريمها، أو الأمور المختلف فيها والراجح مثلًا حلها.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٢/٣٦٨).

(٣) قال الحسن البصري عقب هذا الحديث من رواية النعمان كما في المستدرك (٣/٦١١): «والله لقد رأيناهم صورًا بلا عقول، أجسامًا بلا أحلام، فراشَ نارٍ وذبانَ طمعٍ، يغدون بدرهمين، ويروحون بدرهمين، يبيع أحدهم دينه بثمن العنز».

الروايات بعرض قليل[(١)]، وقد جاء استثناء عند ابن ماجه والطبراني من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إلا من أحياه الله بالعلم»**[(٢)]، فهؤلاء الذين أحياهم الله بالعلم، ونوَّر بصائرهم وثبَّتهم على دينه، وجعلهم من الراسخين، تمر الفتن التي تموج ولا تضرهم؛ لأن الله -جل وعلا- يثبِّتهم.

وهل لقوله ﷺ: **«بعرض قليل»** مفهوم مخالفة، بحيث لو أعطي ثمنًا كثيرًا فهل يخرج من الذم ويسوغ له البيع؟

لا ريب أنه لا مفهوم له، وأنه بيان لواقعِ هوانِ الدين على الناس في زمان الفتن، وليُعلم أنه لا مقارنة بين متاع الدنيا والآخرة ألبتة، فاليسير من أمور الآخرة يعدل الدنيا وما فيها، ففي الحديث: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[(٣)]، فالدنيا كلها لا شيء بالنسبة للآخرة، لو أُعطي الإنسان ما أُعطي من الدنيا ما عدل أيسر أجور الآخرة.

وجاء في بعض الروايات: **«تكون بين يدي الساعة فتنٌ كقطع الليل المظلم»**[(٤)] أي: قبلها، ومن أشراطها، والتنكير للتعظيم، فهي فتن عظام ومحن جسام، كقطع الليل المظلم، والظاهر أن المراد بالإصباح والإمساء -كما يقول أهل العلم- تقلُّب الناس فيها وقتًا دون وقت، لا خصوص الزمانين، فلا يلزم منه أن

---

(١) هي رواية أحمد (٨٠٣٠) وغيره.

(٢) ابن ماجه (٣٩٥٤)، والدارمي (٣٣٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٣)، وقال البوصيري: «قال ابن معين: علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة هي ضعاف كلها، وقال البخاري وغيره في علي بن يزيد: منكر الحديث».

(٣) مسلم (٧٢٥)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) سنن الترمذي (٢١٩٧)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند أبي داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٦١)، عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

يكون في يومٍ واحدٍ يتغير الإنسان، فيكون في الصباح مسلمًا، وفي المساء كافرًا، بل المراد الحكم عليه وهو في هذا الوقت مؤمن وبعده في وقت يليه كافر، فكأنه كناية عن تردد أحوالهم وتذبذب أقوالهم، وتنوّع أفعالهم من وفاء ونقض، وأمانة وخيانة، ومعروف ومنكر، وسنة وبدعة، وإيمان وكفر، وظهر هذا التذبذب كثيرًا في هذه الأيام، فتجد الإنسان ما أعلمه، ما أحلمه، ما أعقله، ثم بعد ذلك يخرج بشيء لا يخطر على القلوب، نسأل الله الثبات.

والمقصود أن مثل هذه الأمور من سمات أوقات الفتن.

وفي الحديث: **«القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من يشرفُ لها تستشرفُه»**[1]، جاءت هذه الجملة وما بعدها في صحيحي البخاري ومسلم في حديث مستقل، وجاءت عند غيرهما تتمةً للحديث الذي معنا بدون: **«من يشرف لها تستشرفه»**[2]، والمقصود أن التباعد من الفتن والتباطؤ فيها خير، ومن قرب منها فهو المذموم، فالقاعد لا يرى شيئًا، فهو معصوم من هذه الحيثية، لكن القائم تكون الفتنة إليه أسرع من الفتنة إلى القاعد؛ لأنه إذا نظر أمامه وجد ما يستهويه ويغريه، فيمشي إليها، ثم بعد ذلك إذ بالناس يتهافتون عليه بسرعة فيسرع، ويتأثر بها، وهذا في وقت الفتن وعدم تبين الحق، وليس منه ما لو وجد فتنة وسعى لأجل حلها أو تخفيفها، فالمشاركة في حل مثل هذه الفتن أفضل، والمسألة مبناها على التأثر بها سلبًا أو إيجابًا، لكن الغالب في

(١) البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (٢٨٨٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «ستكون فتنٌ، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجًا أو معاذًا فلْيَعذ به».

(٢) سنن أبي داود (٤٢٦٢)، سنن ابن ماجه (٣٩٦١)، المسند (١٩٦٦٢).

أوقات الفتن وأيام الاضطراب أنها تؤثر سلبًا في عموم الناس، لكن يبقى أن بعضهم يمكن أن يؤثر فيها إيجابًا، فمثل هذا مشاركته في حلها أو إزالتها هو الممدوح.

«من تشرّف لها تستشرفه» من تطلَّع لها وأظهر لها قرنه، استهوته وأقبلت عليه، فهو يرى ويسمع أخبارًا غريبة وجديدة والناس في الغالب يَمَلُّون الركود، فإذا ظهرت فتنة تموج في الناس تجدهم كلهم حولها، زرافات ووحدانًا، يستشرفونها، فتستشرفهم.

والفتن يختلط فيها الحق بالباطل، ويكثر الاضطراب في التصور والتطبيق، ويحار فيها العقلاء، وإذا شبّ ضرامها عجز الصالحون عن إطفائه، والفتنة كما يقول ابن تيمية: «تمنع من معرفة الحق أو قصده أو القدرة عليه، فيكون فيها من الشبهات ما يلبس الحق بالباطل، حتى لا يتميز لكثير من الناس أو أكثرهم، ويكون فيها من الأهواء والشهوات ما يمنع قصد الحق وإرادته، ويكون فيها من ظهور قوة الشر ما يضعف القدرة على الخير، ولهذا ينكر الإنسان قلبه عند الفتنة»(١).

والنصوص الواردة في الفتن كثيرة جدًّا، أُلفت فيها مؤلفات مفردة(٢)، وضَمَّنَها أهل الصحاح والسنن مصنفاتهم، وحصرها والكلام فيها على التفصيل يتعذر ويحتاج إلى بسطٍ لا يتناسب مع هذا المختصر.

(١) منهاج السنة (٤/٥٤٧-٥٤٨).

(٢) كالفتن لنعيم بن حماد، والسنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني، ولابن كثير النهاية في الفتن والملاحم، وجميعها مطبوعة.

أسباب الفتن

معرفة أسباب الفتن يترتب عليها الوقاية من الوقوع فيها، أو مدافعتها بعد نزولها، مع أن الفتن في الغالب وبخاصة العامة منها: بلاء ومحن، سببها الذنوب، يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «ولا تقع فتنة إلا مِن تَرْك ما أمر الله به، فإنه -سبحانه- أمر بالحق وأمر بالصبر، فالفتنة إما من تَرْك الحق، وإما من تَرْك الصبر»[1].

وهذا هو السبب العام للفتن والمحن، وقد ورد في النصوص ذكر ذنوب ومعاصٍ تكون من أسباب الفتن تحديدًا ، ومنها:

١- الشرك:

قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢]، فكما أنّ الأمن والهداية في التوحيد، فكذلك الخوف والضلال في الشرك، والفتن هي خوف وضلال وحيرة.

٢- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال ﷺ: «**إن الناسَ إذا رأوا المنكرَ فلم يغيِّروه أوشك أن يعمَّهم اللهُ**

(١) الاستقامة (١/٣٩).

بعقابِه»[1]، يقول القرطبي: «قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُمِلَتْ هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر، وعدم التغيير، وإذا لم تُغيَّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها»[2].

وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: **«مَثَلُ القائم على حدود الله والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استَهَموا على سفينةٍ، فأصاب بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلَها** -يعني: استعملوا القرعة؛ لتحديد مكان كلٍّ منهم، مَن يكون مكانه فوق، ومَن يكون مكانه تحت- **فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم** -فرأوا أن من فوقهم تضايقوا منهم من كثرة المرور عليهم- **فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا** -بحيث لا نحتاج إلى أن نمر على من فوقنا- **ولم نؤذِ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»**[3]، فهذا المثل النبوي مطابق غاية المطابقة لواقع الأمة في هذه السفينة التي تتلاطم الأمواج بها ومن حولها، تدفعها تارة يمينًا وتارة شمالًا، وأحيانًا إلى الأمام وأحيانًا إلى الخلف، ولهذا كان تَركُ المفسد والإعراض عن عبثه سببًا منعقدًا لهلاك الجميع.

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وصححه، وابن ماجه (٤٠٠٥)، عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تفسير القرطبي (٧/٣٩٢)، وينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/١٠)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٢/٢٧٨).

(٣) البخاري(٢٣٦١)، والترمذي (٢١٧٤).

٣- الجهل:

فكثير من الفتن العامة والخاصة يسوقها الرؤوس الجهال، ويأتون بكلامٍ ظاهرُه الحق، وفي باطنه الباطل، ويُلبسون على الناس ويستهوونهم بأدلة بعضها من القرآن، والقرآن -كما يقال- حمَّال أوجهٍ[١]، فالذي يأخذ وجهًا ويترك آخر لا بد يضل، وكان الجهل سببًا لفتنة الخوارج، وهي أقدم فتنة فتكت بالمسلمين، وقد وقعت في القرن الأول بعد مقتل عثمان، نظروا إلى بعض النصوص من زاوية دون أخرى، فتمسكوا بنصوص الوعيد، وتركوا ما سواها، ورأسهم هو الذي قال للنبي ﷺ: «اعدل يا محمد»، فقال النبي ﷺ: **«إن من ضئضئ هذا -أو في عقب هذا- قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»**[٢]، وهم الخوارج والمعروفون أيضًا بالحرورية، نسبة إلى حروراء، وهي بلدة انحازوا إليها أول ما خرجوا على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]، قال ابن عباس: «لما خرجت الحرورية اعتزلوا في دار وكانوا ستة

(١) أثرت مقولة: «القرآن حمال ذو وجوهٍ» عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٨٠)، عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج فقال: «اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن؛ فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة»، وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال له: «يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل»، قال: صدقت، ولكن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصًا»، فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن فلم تبقَ بأيديهم حجة».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦)، ومسلم (١٠٦٤)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) حروراء: قرية على ميلين من الكوفة، كان أول اجتماع الخوارج بها فنسبوا إليها، ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ٢٧).

آلاف»[1]، فأرسل علي إليهم ابن عباس محاجًّا، فذكر من عبادتهم واجتهادهم ما ليس عند الصحابة، وسألهم: «ما تنقمون على علي؟» فذكروا ثلاث مسائل: إحداهن أنه حكم الرجال في أمر الله، والله يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، والثانية: أنه قاتل ولم يسبِ ولم يغنمْ، والثالثة: أنه محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

هذه الشبه هي سبب فتنتهم العظيمة في القرن الأول المفضل، فقال ابن عباس: أما الأولى، فقد قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة:٩٥]، وكان من حكم الله أنه صيره إلى الرجال يحكمون فيه، أنشدكم بالله، أُحكِّم الرجال في صلاح ذات البين وحقْن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ قالوا: بلى، بل هذا أفضل.

قال: وأما قولكم: قاتل ولم يسبِ ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة؟ تستحلون منها ما تستحلُّون من غيرها وهي أمُّكم، فإن قلتم إنَّا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بأمِّنا فقد كفرتم.

وأما محو نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون أن نبي الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعلي: **«اكتبْ يا علي، هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله»**، قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: **«امحُ**

(١) السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٤٨٠).

يا علي، اللَّهم إنك تعلم أني رسول الله، امح يا علي واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»، والله لرسول الله ﷺ خير من علي وقد محا نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاهُ من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم، فقتلوا على ضلالتهم، قتلهم المهاجرون والأنصار[(1)].

٤- إدخال كتب الفتن والضلال إلى بلاد المسلمين:

كتب أهل الضلال مشتملة على انحرافات وفتن، لا يعلم قدرها إلا من فقه سبب فتنة خلق القرآن، وما جرَّه إدخال كتب اليونان وتعريبها على المسلمين من محن بقيت آثارها إلى زماننا هذا، والاطلاع على الكتب المتقدمة التي جاء القرآن ببيان تحريفها حكمه التحريم عند أهل العلم، وألف السخاوي كتابًا أسماه «الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل»[(2)]، والنبي ﷺ لما رأى صحيفة من التوراة في يد عمر أنكر عليه، وقال: **«أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ فوالذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»**[(3)]، فالأصل تحريم النقل والأخذ منها إلا لمصلحة راجحة في الرد عليهم

(١) أخرج القصة مطولة عبد الرزاق في المصنف (١٠/١٥٧)، والنسائي في الكبرى (٥/١٦٥)، والحاكم (٢/١٦٤) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وعنه البيهقي في الكبرى (٨/١٧٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٦٣).

(٢) هو كتاب رد به على برهان الدين البقاعي في كتابه: «الأقوال القويمة في حكم النقل عن الكتب القديمة»، كما قال السخاوي في الضوء اللامع (١/١٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٩٤٩)، ومن طريقه ابن عبد البر في الجامع (٢/٩٢)، من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكره، قال ابن حجر في الفتح

وإلزامهم بما في كتبهم، كما نراه في كلام شيخ الإسلام.

ومن الأساتذة والأدباء من يوصي طلابه بقراءة كل شيء، فمن المدرسين من يقول لطلابه: «اقرؤوا كل شيء، فإذا فرغتم قولوا: لا إله إلا الله». فالعجب والله منه! كيف لو وقعت في القلب شبهة؟ وفي هذا الصنيع إلقاء بناشئة المسلمين إلى التهلكة، ومن ذلك الكتب والمواقع الإباحية وكتب ومواقع الزندقة، التي لا رقيب عليها ولا حسيب، وانظروا إلى آثارها في أوساط الشباب المراهقين والشابات، وماذا فعلت بهم والبوادر بدأت تظهر، فنسمع كثيرًا عن اجتماعات إلحادية تشكك في وجود الله -جل وعلا-. من أين جاءت هذه الأفكار إلينا؟ من التساهل في هذا الباب.

٥- التعصب للطوائف والأشخاص:

فكثير من الفتن يجرها التعصب، وقد يحصل هذا حتى لبعض المنتسبين إلى السنة، ولم يكن من هدي السلف لا في أوقات الفتن ولا أوقات السعة أن يتعصبوا لطائفة، أي طائفة كانت ما لم تكن معتصمة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يقول ابن تيمية: «ليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] وليس لأحد

(١٣/٣٣٤): «ورجاله موثقون، إلا أن في مجالد ضعفًا»، وذكر له طرقًا أخرى، وقال (١٣/٥٢٥): «وهذه جميع طرق هذا الحديث، وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به، لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلًا».

منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريد، وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيز خان وأمثاله، الذين يجعلون من وافقهم صديقًا مواليًا، ومن خالفهم عدوًا باغيًا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله»[(١)].

٦- كثرة الخبث:

كما في حديث زينب المتقدم، والخبث جنس تحته نوعان: العملي، وهو الخبث المتعلق بالشهوات، والفكري، وهو الخبث المتعلق بالشبهات، فإذا كثر هذا وعجز الناس عن إنكاره ومقاومته هلكوا وفيهم الصالحون، وقد فسر الخبث بالزنا، وفسر بالمعاصي عمومًا[(٢)].

وإنما يقع الهلاك إذا كثر الخبث وأشيع ولم ينكر، فأما إذا أنكر فلا، وإليه الإشارة بـ«الصالحون»، فصلاح الإنسان في نفسه وتركه إصلاح غيره لا يمنع العذاب العام.

٧- استحلال المحرمات وانتشار المعازف والقينات:

ففي حديث المعازف المشهور عند البخاري: **«ليكوننَّ من أمتي أقوامٌ**

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٥-١٦).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٨/٣).

يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب عَلَمٍ يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم -يعني: الفقير- **لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله ويضع العَلَمَ، ويمسخ آخرين قردةً وخنازيرَ إلى يوم القيامة»**(١).

والناظر في زماننا هذا يجد ما فيه من أسباب الهلاك قد انعقدت واجتمعت، فالغناء وجد من يقول بحله اعتقادًا، وأما فاعلوه وهواته فلا يحصون -والعياذ بالله-، ومثله الخمر.

وبالجملة فانتشار المعاصي والذنوب بأنواعها، وإظهارها دون نكير سبب عظيم للفتن والرزايا، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم:٤١]، وقد أوعب ابن تيمية في كتاب الحسبة في هذا وأتى على كل أطرافه، فليراجع.

(١) البخاري (٥٢٦٨)، عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والعلم: الجبل، والسارحة: الأغنام.

طرق الوقاية والنجاة من الفتن

ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاءً كما في الحديث[1]، وللفتن وقاية قبل وقوعها، ونجاة ودواء بعد وقوعها، وعلينا أن نتقي الفتن بدفعها بالأسباب الشرعية، ومن أعظم ما يدفع الفتن على وجه العموم: اهتمام الإنسان بصلاح نفسه أوَّلًا، ومن تحت يده ثانيًا، والارتباط بالله -عز وجل-، وصدق اللجوء إليه مع بذل الأسباب في إصلاح الغير. ومن طرق النجاة تفصيلًا ما يأتي:

الطريق الأول: الاعتصامُ بكتاب الله جَلَّجَلَالُهُ، وسنة رسوله ﷺ

فهما المخرج من الفتن كلها، ليس هناك مخرج آخر غيرهما، وقد أرشدنا إلى هذا المخرج النبي ﷺ، كما في حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«ألا إنها ستكون فتنة، قيل: يا رسول الله، فما المخرجُ منها: قال: كتابُ اللهِ»**[2]، وإن كان في سنده كلام، لكن لجمله شواهد مما يدل على أن له أصلًا، وصح عن عبد الرحمن بن أَبْزَى قال: قلت لأبي بن كعب لما وقع الناس في أمر عثمان: أبا المنذر ما المخرجُ؟ قال: «كتابُ اللهِ،

---

(١) البخاري (٥٣٥٤)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفى الحارث مقال»، والدارمي (٣٣٣١، ٣٣٣٢)، والبزار (٣/٧١)، وله شاهد عن معاذ في معجم الطبراني الكبير (٢٠/٨٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٣٤٢): «وفيه عمرو بن واقد وهو متروك»، وتعقب المعلمي الشوكانيَّ في تحقيق الفوائد المجموعة فقال (ص:٢٩٦): «سنده ضعيف، ومتنه حسن، فلا يتجه الحكم بوضعه».

ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكِلْه إلى عالمه»[1]، فعلى المسلم أن يمتثل ما في كتاب الله، وعليه أن يكون ديدنه تلاوة كتاب الله في كل وقت والإكثار من تلاوته، لكن على الوجه المأمور به من الترتيل والتدبر؛ ليزداد بذلك من الهدى واليقين والطمأنينة وشرح الصدر وزيادة الإيمان، فلو جلس العبد بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ساعة لمدة أسبوع لاستطاع ختم القرآن، بثلاثة ملايين حسنة، فلا يفرط في مثل هذا إلا محروم.

وكذلك العمل بسنة النبي ﷺ، يقول ﷺ: **«إنها ستكون فتن وأمورٌ تنكرونها، فعليكم بسنتي»**[2]، والذي لا يعمل بالسنة لا بد أن يبتلى ببدعة.

الطريق الثاني: الصبر وعدم التسرع في الأحكام والأفعال

فإنّ ليل الفتنة حالك لا يكاد يرى الرجل فيه يده، فكيف يحكم هذا على رؤية غيره، فضلًا عما هو أدق؟ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليس لمن قد فُتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة مُمَحِّصةً له، ومخلِّصة من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب»[3].

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الأوسط (ص:٦٤) وابن أبي شيبة في المصنف (٨/٦٨٥)، والحاكم (٣/٣٤٣)، وصححه الذهبي، وزاد فيه: «وسنة نبيه».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (٤٢)، عن العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال ابن رجب: «هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين» جامع العلوم والحكم (٢/ ١٠٩).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/١٦٢).

الطريق الثالث: لزوم العبادة في أوقات الفتن

ففيها مخرج ونجاة من الفتن، وفي صحيح مسلم: «**العبادةُ في الهرج كهجرة إليّ**»[1]، فعلى الإنسان أن يلزم الفرائض ويسعى في تكميلها، ثم بعد ذلك يسعى فيما يسد الخلل، فيكثر من النوافل من جنس هذه العبادة، يكثر من نوافل الصلاة، ومن نوافل الصيام، ومن نوافل الحج والعمرة، ومن الأذكار التي لا تكلف الإنسان شيئًا، ورتب عليها الأجور العظيمة، فالذي يلهج بذكر الله بإخلاص وحضور قلب لا يخذله الله في وقت الشدائد والفتن، وفي الحديث: «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[2].

فعلى الإنسان أن يهتم بالعمل قبل وقوع هذه الفتن؛ لأنها إذا وقعت، وأراد العمل، والنفس ما تعوّدت عليه، فإنه في الغالب لا يعان عليه، وكيف يعان إنسان يسهر السنة كلها مع أقرانه وزملائه في القيل والقال، فإذا قارب طلوع الفجر نازع نفسه ونازعته أيوتر بثلاث أو بواحدة؟! قد يعان على الثلاث قد يعان على الواحدة، وقد لا يعان على الصلاة أصلًا؛ لأنه لم يتعرّف إلى الله في الرخاء، وإذا لم يتعوّد المسلم على العبادة في أوقات السعة لم يستطع القيام بها في وقت الضيق.

وقد مرت وتمر على بلاد المسلمين محن وحروب وقتل بالجملة، وهذه فتنة، فتجد كثيرًا من المسلمين انشغل بهذه الفتنة، يتابعها ليلًا ونهارًا على سائر الوسائل، المقروءة والمسموعة والمرئية، وشغل بها فكره، وانشغل بها عن عبادة ربه، مَن مِن الناس -حتى من طلاب العلم- يقول: «رأيت الناس انشغلوا بهذه الأمور،

(١) (٢٩٤٨) عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، وعبد بن حميد (٦٣٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الحاكم في المستدرك (٦٣٠٣).

فأنصرف إلى قراءة القرآن أو الصلاة؟» ما ينصرف إلى هذه الأعمال إلا رجل موفق، ولا يتفرغ لها إلا الأفراد، وكذلك قد انشغل الناس في زمنٍ مضى بمتابعة أسعار أسهم الشركات التجارية صعودًا ونزولًا، انشغلوا بها شغلًا مذهلًا، فمن الذي انصرف إلى عبادة ربه؟

يقول القرطبي: «قوله ﷺ: **«العبادة في الهرج كهجرة إليَّ»**، قد تقدم أن الهرج الاختلاط والارتباك، ويراد بها الفتن والقتل، واختلاط الناس بعضهم في بعض، فالمتمسك بالعبادة في ذلك الوقت والمنقطع إليها المعتزل عن الناس أجره كأجر المهاجر إلى النبي ﷺ؛ لأنه يناسبه من حيث إن المهاجر قد فر بدينه عمن يصده عنه إلى الاعتصام بالنبي ﷺ»[1]، يعني: هذا وقت فر النبي ﷺ بدينه من قومه وعشيرته الذين يحاولون أن يصدوه عن دينه ويصرفوه عنه، وكذلك هذا المنقطع للعبادة قد فرَّ من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه، فهو على التحقيق قد هاجر إلى ربه، وفر من جميع خلقه.

الطريق الرابع: لزوم جماعة المسلمين وإمامهم

فإذا وجدت هذه الفتن كالقتل والنهب وغيرها كان على الإنسان أن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم، كما في حديث حذيفة لما ذكر النبي ﷺ الفتن، قال حذيفة: **«فما تأمرني إن أدركني ذلك؟» قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»**[2].

والخروج على الحكام المسلمين، والتأليب عليهم -وإن فسقوا- فتنة لا يغلق بابها بسهولة، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي

(١) المفهم (٧/٣٠٩).

(٢) البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧).

سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته، والله -تعالى- لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغ كيفما كان، ولا أمر بقتال الباغين ابتداءً، بل قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ [الحجرات:٩]، فلم يأمر بقتال الباغي ابتداءً، فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداءً؟»[١]، ومعلوم أن هذا أمر يجر إلى مفاسد عظمى، وحبل الأمن إذا اختل فدون عوده خرط القتاد، والاختلاف والفرقة تورث الفشل والضعف وانتصار الأعداء؛ يقول الله -جل وعلا-: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦] وقال -جل وعلا-: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، وجاء في الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: **«من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية»**[٢].

فيجب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، ويحرم الخروج عليه ولو جار، ولا يخلع بالفسق، ولننظر نتيجة الخروج ونقض بيعة يزيد بن معاوية وعنده فسوق وفجور، ما الذي حصل؟ ما ذكر من استباحة المدينة، وقَتْلِ أكثر من عشرة آلاف من أخلاط الناس، منهم جمعٌ من حملة القرآن، وجالت الخيل في مسجد رسول الله ﷺ، وذكر أن المدينة خلت من أهلها، وبقيت ثمارها للعوافي من الطير والسباع، وكان ذلك سنة ثلاث وستين، هذه نتيجة الخروج على الأئمة.

وكم من أمير تمنى الناسُ زوالَه، بل قام الناسُ عليه وأطاحوا به، فصاروا

---

(١) (٣/٢٣١-٢٣٢).

(٢) البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩).

يكون عليه أشد البكاء، في القديم والحديث، ولا يأتي زمانٌ إلا والذي بعده شرٌّ منه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه، من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه»[(١)].

الطريق الخامس: الإكثار من الدعاء

فعلى المسلم الإكثار من الدعاء بالثبات وحسن الختام، والاستعاذة بالله -جل وعلا- من هذه الفتن، عله أن يوافق ساعة استجابة فيُعصم منها، قال النبي ﷺ: **«تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»**[(٢)]، وقال: **«سلوا الله العافية»**[(٣)]، وجاء الأمر بالتعوذ من الفتن في صحيح البخاري عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

---

(١) إعلام الموقعين (٣/٤).

(٢) مسلم (٢٨٦٧)، عن زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان من دعائه ﷺ: «وأعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن».

(٣) البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: **«أعوذ بوجهك»**، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: **«أعوذ بوجهك»**، فلما نزلت: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: **«هاتان أهون أو أيسر»**[(١)]، وفي البخاري عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نحمل لبنة لبنةً وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: **«ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار»**، قال: يقول عمار: «أعوذ بالله من الفتن»[(٢)]، يقول ابن حجر: «فيه دليل على الاستعاذة من الفتن ولو علم المرء أنه متمسك فيها بالحق؛ لأنها قد تفضي إلى وقوع من لا يُرى وقوعه»[(٣)].

الطريق السادس: نشر العلم الشرعي

فقيام العلماء وطلاب العلم بواجبهم تجاه الأمة تعليمًا ونصحًا وتحذيرًا من الفتن طريق النجاة من الوقوع فيها، وتزداد الحاجة إلى العلماء في أيام الفتن، فعليهم أن يبصروا الناس بالباطل، ويحذروهم منه، ويثبتوهم على الحق، ويربطوا على قلوبهم، ولا يدعوهم يتخبطون ويتبعون كل ناعق، فالله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، فبالهدى يعرف الحق، وبدين الحق يقصد الخير، ووجود العلماء العاملين سببٌ من أسباب دفع البلاء والفتن؛ بقدر إرثهم من النبوة علمًا وعملًا.

وفي كل زمان نجد أن وجود العلماء العاملين والعباد والدعاة الأخيار يدفع

---

(١) البخاري (٧٣١٣).

(٢) البخاري (٤٣٦).

(٣) فتح الباري (١/٥٤٣).

الله بعلمهم ودعوتهم الكثير من الفتن، وكلما انتقصت الأمة من علمائها العاملين زادت فيها الفتن، وظهر الجهال وترأسوا، فضلوا وأضلوا.

ولكن المشاهد أنه وبعد أن زادت هذه الفتن وتوالت، خف طلب الناس للعلم، بل بعض العلماء خف بذلهم وعطاؤهم؛ انشغالًا بهذه الفتن واقتصارًا على وسائل الإعلام، فتجده يشاهد الشاشات؛ طلبًا لمعرفة ماذا حصل هنا وهناك، ويسمع التحليلات ممن لا علاقة لهم بعلم ولا فقه، بل ولا ديانة لهم، وتمضي الأوقات والأعمار بهذه الطريقة؛ من قناة إلى قناة، والنتيجة لا شيء.

ومَثَلُ الفتن والناسِ علمائِهم وعوامِّهم كعمارةٍ شاهقةٍ كبيرة فيها آلاف السكان، شب فيها حريق فجأة، فاضطرب الناس وهاجوا واحتاروا ماذا يصنعون؟ فالذين يعرفون مخارج الطوارئ في العمارة يسهل عليهم التعامل مع هذا الحادث الذي وقع وينجون بأنفسهم وبغيرهم، وأما الذين لا يعرفون أين يتجهون، فالغالب أنهم يتدافعون فيحترقون، وقد يكون المخرج بجوارهم، فالذي يعرف المخارج من الفتن -التي تقابل في المثال مخارج الطوارئ في العمارة- هم العلماء، فهم الذين يعرفون الفتن والأحداث قبل وقوعها، بما عندهم من تقوى وفراسة وعلم راسخ بالنصوص، ولذا يُوصى طلاب العلم بأن يكثروا من القراءة في كتب الفتن؛ لأنها إذا وقعت والإنسان عنده علم بها عرف كيف يتعامل معها، بخلاف ما إذا وقعت بغتة ومفاجأة ولم يسبق له علم بها وبصفاتها، والفجأة تطيش معها العقول فلا تتعامل مع الحوادث بحكمة ورويّة.

وقد مرّ بنا في الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية أكثر من فتنة، يموج فيها الناس ويطيشون كالجراد المنتشر، ولكن مأواهم ومرجعهم في النهاية إلى أهل العلم: يسألونهم كيف يتصرفون؟ وماذا يفعلون؟ وتجدون طلاب العلم من الآفاق

من البلدان والأقطار البعيدة يفدون إلى هذه البلاد ثقة بعلمائها يسألونهم كيف يتصرفون في بلدانهم التي حلت فيها الفتن؟ فالعلم -والمقصود به العلم النافع المورِّث للعمل الصالح- هو الذي يقي به الله -جل وعلا- المسلمَ من الفتن.

وعلى الإنسان كذلك أن يبذل الجهد في تعليم وتربية أولاده، ويحرص على ذلك ولا ييأس، وإذا جاءت النتائج عكسية فلست مسؤولًا عن النتائج، فمن الأنبياء من لم يستجب له أقرب الناس إليه، فهذا نبي الله نوح زوجته وابنه ما استجابا له، مع أنه بذل في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلا يتصور أنه يدعو الناس ويترك أهل بيته، لكن النتيجة بيد الله -جل وعلا-، وهذا ابتلاء من الله -جل وعلا-، فقد يكون العالِم من أنفع الناس للناس وأكثرهم تأثيرًا فيهم، لكن في بيته ما استطاع أن يصل إلى شيء مع بذله، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦]، والنبي ﷺ حرص على هداية عمه فلم يستطع مع أنه رسول الله ﷺ.

الطريق السابع: تجنب الفتن والهروب من مواطنها ما أمكن

قال ﷺ: **«إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ»**(١)، فمن السعادة الكبرى ألَّا تسمع عن هذه الفتنة، وإذا سمعت ألَّا تمشي إليها، ومن باب أولى ألَّا تسعى فيها، لا سيما لمن لم تكن له القدرة على التأثير في أطراف الفتنة، وفي الحديث: **«فمنْ وجدَ ملجأً أو معاذًا فَلْيَعُذْ به»**(٢)، فلا

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٦٣)، عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح.

(٢) البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (٢٨٨٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يكفي القعود في بعض الفتن المتلاطمة، بل لا بد من الذهاب والانصراف في الاتجاه المعاكس ليجد ما يحميه ويقيه من هذه الفتن.

فإذا وجدت الفتن المتلاطمة وعجز الإنسان عن حماية نفسه ومن تحت يده، فضلًا عن أن يكون مؤثرًا في غيره، وخشي على نفسه أن يتأثر، فليفرَّ بدينه من الفتن ويعتزل الناس.

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين قال: «هاجتِ الفتنةُ وأصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ عشرةُ آلافٍ، فما خفَّ فيها منهم مائةٌ، بلْ لمْ يبلغوا ثلاثينَ»(١) أي: من استدرجتهم هذه الفتن مع أن عددهم عشرة آلاف لم يبلغوا ثلاثين يعني: ثلاثة من ألف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الإسناد من أصح إسناد على وجه الأرض، ومحمد ابن سيرين من أورع الناس في منطقه، ومراسيله من أصح المراسيل»(٢).

وكان السلف يتقون الفتن بقدر الإمكان، ولا يخوضون فيها، ولا يتداولون أخبارها، ولذا جاء في كتب العقائد التحذير من ذكر ما شجر بين الصحابة، ولا يقعون في هذا، ولا يلتفتون إليه، وجاء في صحيح مسلم عن عامر بن سعد قال: كان سعد بن أبي وقاص -يعني: أباه- في إبله، فجاءه ابنه عمر بن سعد فلما رآه سعد قال: «أعوذ بالله من شر هذا الراكب»، فنزل فقال لأبيه: «أنزلتَ في إبلك وغنمك وتركتَ الناسَ يتنازعون الملكَ بينهم؟» -يغري أباه بالمنازعة في الملك،

(١) أخرجه الخلال في السنة (٢/٤٦٦ رقم ٧٢٨).
(٢) منهاج السنة النبوية (٦/٢٣٧).

لعله يصير خليفة أو نائبه-، فضرب سعد في صدره فقال: «اسكت، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ»** بالمعجمة، وفي بعض الروايات: **«الحفي»**(١) بالمهملة.

وروى ابن سعد في طبقاته عن مطرّف بن عبد الله -يعني: ابن الشخير- وهو من سادات الأمة وخيارها وعبادها وعلمائها قال: «لبثت في فتنة ابن الزبير تسعًا أو سبعًا ما أَخبرت فيها بخبر ولا استخبرت فيها عن خبر»(٢)، وحالُ الناسِ اليومَ عكوفٌ على وسائل الإعلام، من أجل أن يستخبروا عن هذه الفتن، وليس من هدي السلف تطلّب مثل هذه الأمور، وفي البخاري عن أبي سعيد الخدري سمعت النبي ﷺ يقول: **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»**(٣).

ويستدل بهذا الحديث من يفضل العزلة، وبعض شرّاح البخاري -وغالبهم في القرن الثامن والتاسع وما بعده- يقررون أن المتعيّن في هذه الأزمان العزلة؛ لندور خلو المحافل من المنكرات(٤)، وهذا قبل خمسة قرون أو ستة، فماذا عن مجتمعات المسلمين اليوم؟! والآن حتى في العزلة لا يسلم الإنسان؛ لأن وسائل الإعلام تتابعه وتلاحقه في كل مكان.

---

(١) مسلم (٢٩٦٥)، وقال النووي في شرح مسلم (١٨/ ١٠٠): «بالخاء المعجمة هذا هو الموجود في النسخ والمعروف في الروايات، وذكر القاضي أن بعض رواة مسلم رواه بالمهملة، فمعناه بالمعجمة: الخامل المنقطع إلى العبادة والاشتغال بأمور نفسه، ومعناه بالمهملة: الوَصُول للرحم اللطيف بهم وبغيرهم من الضعفاء، والصحيح بالمعجمة».

(٢) (٧/ ١٠٣)، وتاريخ دمشق (٥٨/ ٣١٤).

(٣) البخاري (١٩).

(٤) ينظر: الكواكب الدراري (١/ ١١١)، وعمدة القاري (١/ ١٦٣).

ولا يستطيع الإنسان أن يحفظ قلبه، ولسانه، ودينه، وعلمه، وعمله إلا بشيء من العزلة، والصحابة -رضي الله تعالى عنهم- طبقوا هذا المبدأ في اعتزال الفتن، وذلك فيما إذا لم يظهر رجحان أحد الطائفتين.

والعزلة في الغالب تكون في البلد، ومن أنواع العزلة الهجرة وهي مفارقة البلد، وهي باقية إلى قيام الساعة، فمنها ما هو الواجب وهو الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، فالإقامة في بلاد الكفر لا تجوز إلا لعاجز مستضعَف، الذي لا يستطيع حيلة، ولم تذكر الحيلة في شيء من النصوص بالإقرار والجواز إلا في هذا الموضع؛ لأن ضرر البقاء بين أظهر المشركين ضررٌ محض، وكثير من المسلمين الذين يعيشون في بلاد الكفار يكون الضرر عليهم في أديانهم وعلى ناشئتهم أظهر.

ومنها ما هو المستحب، وهي الهجرة إلى بلد من بلاد المسلمين فيه الأخيار أكثر وأظهر، ويتمكن فيه من طلب العلم من أهله، أهل العلم والعمل والإخلاص والتحقيق لعقيدة التوحيد، الهجرة إلى مثل هذا البلد مستحبة، على ألا تخلو البلدان الأخرى ممن يدافع.

والعزلة التي تكون داخل البلد قسمان: عزلة كلية، وعزلة جزئية، فالعزلة الكلية تكون باعتزال الناس دائمًا في جميع الأوقات، والعزلة الجزئية تكون في بعض الأوقات دون بعض، فهو يصلي مع الناس الجماعة، ويشهد الجمع والأعياد، ويحضر المناسبات الشرعية، لكنه لا يكثر الاختلاط بالناس؛ لأن كثرة الخلطة بالناس أثرها على القلب ظاهر، وإن كان هذا يتفاوت بتفاوت الناس، فبعض الناس وجوده في المحافل والمجالس خير، يسعى جاهدًا في نفع الناس، وبعض الناس وجودهم سلبي؛ لا خير ولا شر، وبعض الناس وجوده ضرر، لكن في الجملة كثرة الخلطة مع الناس لا بد أن يكون لها أثر على القلب، وقد سُمع شخص

ممن يكثرون الاختلاط بالناس في صلاة التهجد في ليالي العشر يضحك وهو ساجد؛ لأنه جاء من مجلس فيه: «قيل وقال وضحك»، وبعض الناس مبتلى بصحبة الفكاهيين، ثم يأتيه الضحك في وقت لا يستطيع دفعه، وهو في أحوج الأوقات لاستحضار قلبه ليدعو وليؤدي العبادة على الوجه المطلوب، وهكذا كل من أدمن شيئًا وأَلِفه غلب عليه حتى في مواسم الخير والثواب، فتجد من ابتُلِي بتقليد حركات الناس وأصواتهم يقلد في عشية عرفة، والذي ابتُلي بالغيبة والنميمة تجده في هذا الموطن العظيم يغتاب، لا يستطيع أن يملك نفسه، فعلى الإنسان أن يقلِّل من الخلطة بقدر الإمكان على ألا يترك الواجبات، ولا يقصر في الحقوق.

والعزلة لا شك أن فيها نفعًا عظيمًا لا سيما في أوقات الفتن التي لا يستطاع رفعها ولا دفعها، ويُخشى من تأثر الإنسان بها، فإذا كان الإنسان من النوع المؤثر فهذا لا يجوز له أن يعتزل، بل لا بد أن يخالط الناس ويؤثر فيهم، ويسعى في تخفيف هذه الفتن.

الطريق الثامن: التثبّت والتحرّي وعدم العجلة في علاج القضايا

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ وفي قراءة: ﴿ فتثبتوا ﴾ ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[الحجرات: ٦] وفي هذه الظروف التي تكثر فيها الفتن ويكثر فيها الهرج -الذي هو القتل- لا بد من الإمساك عن إذاعة الأخبار بين عامة الناس وغوغائهم، ولا بد من الربط على قلوب العامة، فالربط على قلوب الناس وأخذ الأمور بحلم وحكمة، والإمساك عن إذاعة الأخبار وعن التسرع في إشاعتها، والتأني والتؤدة في فهمها وتحليلها وتنزيلها على الوقائع والأحوال والحوادث سبيل أهل الديانة، والذي يحللها وينزلها

مواقعها هم العلماء الذين أداموا النظر في كتاب الله وفي سنة نبيه ﷺ اللَّذيْن فيهما المخرج من جميع الفتن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] أي: العلماءُ، فالرجوع إلى الأكابر من أهل العلم في زمن الفتن هو الحل الوحيد، وفي آخر الآية تنبيه على أن سلوك غير هذا السبيل في زمن الفتن ورد الأمر إلى غير أهله يؤدي إلى اتباع خطوات الشيطان وحزبه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الطريق التاسع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

فالفتن العامة تُتقى بالحيلولة بين الظالم وظلمه، فإذا حلنا بين الظالم وظلمه فإننا حينئذ جعلنا بيننا وبين هذه الفتنة وقاية.

وكذلك تأوّلها الزبير بن العوام، ففي يوم الجمل -وكان سنة ست وثلاثين- قيل له: «يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيَّعتم الخليفة حتى قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟!» قال الزبير: «إنا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ولم نكن نحسب أنا أهلها، حتى وقعت منا حيث وقعت»(١).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصيصة هذه الأمة، وهو سبب رفعتها، وخيريّتها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤١٤).

﴿ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، فقدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله مع أنه لا يصح أمر ولا نهي إلا بعد الإيمان؛ لأنه خصيصة هذه الأمة، فالأمم السابقة -أعني: أتباع الأنبياء- يؤمنون بالله، لكنَّا فضلنا عليهم؛ لأننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ولذلك قدم على الإيمان بالله الذي يشترك فيه الجميع، فإذا تركنا هذه الخصلة صرنا مثل باقي الأمم.

لكن الأخذ على يد الظالم يكون بحسب القدرة وبالوسائل المحققة للمصلحة التي لا يترتب عليها مفسدة، فلا بد من مراعاة القواعد العامة في النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالنصيحة إذا ترتب عليها معاندة وإصرار من المنصوح وخروجه عن جلباب الحياء، وزيادته في الشر فتركها أولى، ريثما تتيسر وسيلة أنجع.

وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا خشي أن يترتب عليه منكر أعظم منه، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

حكم تمني الموت في زمن الفتن

الأصل في تمني الموت الحرمة؛ لقوله ﷺ: **«لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا للموت فليقل: اللَّهم أحيني ما كانت الحياةُ خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»**(١).

وقال خباب: «لو لا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضررًا في دينه أو فتنة فيه فلا كراهة فيه؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم، وفيه أنه إن خاف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه، فليقل: «اللَّهم أحيني إن كانت الحياة خيرًا لي...»، والأفضل الصبر والسكون للقضاء»(٣).

وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **«لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»**(٤)، وهذا من شدة الفتن وكثرتها التي ستحل بالناس قرب الساعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠)، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٩)، ومسلم (٢٦٨١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/٧-٨).

(٤) البخاري (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧) وزاد مسلم: «وليس به الدين إلا البلاء»، وعند أحمد (١٠٨٦٦): «... يا ليتني مكانه ما به حب لقاء الله».

فيجوز للإنسان أن يتمنى الموت ويدعو به خشيةً على دينه في أوقات الفتن التي قد لا يتميز فيها الحق، أو قد لا يُوفّق الإنسان لاتباعه، أو يحال دونه ودون اتباعه؛ لأن طول الحياة إنما يُطلب من أجل التزوّد ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، فإذا لم يتمكن من التزوّد أو خشي على رأس المال الذي هو الدين، فلا قيمة للبقاء في هذه الحياة، وقد تمناه بعض الصحابة لما وقعت بعض الفتن[١]، وما زال الأخيار إذا حصل ما حصل يتمنونه، وهذا مستثنى من النهي عن تمني الموت؛ لأن النهي عن تمني الموت بسبب ضر أصابه في دنياه، كمن خسر خسارة مالية فادحة، أو صار له حادث، أو نحو ذلك، فهذا لا يجوز له أن يتمنى الموت، وإذا كان لا يعرف هل بقاؤه مصلحة أو لا فَلْيَقلْ: **«اللّٰهم أحيني ما كانت الحياةُ خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي»**.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

(١) دعا به عمر، كما في الموطأ (١٠٥٦)، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه سمعه يقول: لما صدر عمر بن الخطاب من منى أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه، واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: «اللّٰهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع، ولا مفرط».

فهرس المحتويات